المحتضر

للكاتب الفرنسي موباسان

ترجمة السيد كمال الحريري

كانت أشعة شمس الخريف اللذيذة الفاترة ، ونسمات « ديسمبر » الرخية العاطرة ، تتسرب إلى ساحة الدار من المزرعة وتداعب فى هينة ورفق رؤوس الأعشاب النامية بأطراف الحفر وحفاف الترع ، وكانت التربة خضلة ندية خلال الأعشاب القصيرة الفضيمة التى رعتها سوائم البقر وقطائع الماشية ، لا تكاد القدم تستقر عليها حتى تغوص فى برك صغيرة من الماء الذى خلفته الغوادى والسوارى

وكانت خمائل التفاح وأدواح الدراق موقرة الفروع بالثمر الشهى ، منقادة الغصون بالتفاح الأحمر الطلى ، يساقطها سارى الطل ، وينثرها نسيم الصبح على العشب الأخضر فتموج سطحه بلونها الأحمر والأصفر كطرائق من الدرر واللآلىء على القطيفة الخضراء

وفى ركن المزرعة أربع بقرات ترعى العشب الندي وتقضم النبت الطرى ، فى مرح ورضى ولذة ثم تتلفت صوب المنزل مرسلة خوارها المدوي ، بينما دجاجات حول دمنة المزرعة خرجت تستنكش الحب ، وتستنبش الديدان وتستدعى أفراخها ، وديكتها يجرى وراءها مزهوة فخورة ، تغنى دون انقطاع أنشودة الزوج الغيور على إنائه الحسان . وينفتح سياج البستان ، فيبرز منه رجل قروى فى الرابعة والأربعين من سنيه ، ولوأن وجهه المجعد وقامته المحنية كانا يدنيانه إلى حدود الستين

كان واسع الخطو وئيدها ، طويل الأذرع مديدها ، ثقيل الحركة بطيء اللفتة ، يثقل قدميه خفان غليظان امتلآ تبناً وهشيما . اقترب الرجل من المزرعة فإذا كلب أصفر صغير يحرك ذنبه فرحاً ، ثم يأخذ فى نباح قصير كأنه موسيقى استقبال ويحف بسيده المقبل ، وما هى إلا أن زجره الرجل حتى يقمى على ذيله ويلتزم الصمت

وخرجت فى هذه اللحظة من المنزل قروية زرية الهيئة قبيحة المنظر مفرطة الطول عريضة ما بين المنكبين ، تجلببت بثوب صوفى ضيق قصير ، التصق بجسمها وتهدل حتى ركبتيها ، فبان تحته جوربان خشنان أزرقان ، انتعلا حذاءين غليظين حشيا كزوجها هشيماً وتبناً . وكان يستر شعورها الشعث المليدة ، ولواصيها الغبر المفتلة ، قبعة صفراء قذرة ، برز تحتها وجه هزيل أسمر ليس بالجميل ولا الوسيم ، وإنما عليه طابع القرية وسيما الريف . قال الرجل سائلاً :

— وكيف حال أبيك ؟ فأجابت الزوجة :

— يقول سيدى القسيس إنه الموت ، وإن ليلة الغد لن تطلع عليه أبداً . ثم ولجا المنزل وبعد اجتياز المطبخ صارا إلى غرفة واطئة السقف مظلمة الجو ،

لا يكاد ينيرها إلا لوح زجاج من نافذة ضيقة . وكانت أرضها المحدبة اللتوية ، وقد غمرتها الرطوبة وسالت بها القذارة ، تظهر وكأنها استحمّت في وشل من دهن . وفي ركن قصي من هذه الغرفة كانت العين تقع على سرير منتبذ تنبعث منه أنّة غريبة الجرس فيها الغصة الأليمة ، والزفرة الحرى والحشرجة التي تشبه انفجار قنبلة في ميدان ، أو ارتطام لجة على صخر ، وكان يفترش هذا السرير محتضر هو حمو الزوج

ويقترب الرجل وامرأته من المشرف المدنف ، ويجيلان فيه بصراً هادئاً راضياً ثم يقول الزوج :

— ليس من موته بدّ هذه الليلة. فتستطرد المرأة:

— منذ الظهر وحاله على ماترى . وكان المحتضر مغمض الجفن أربد الوجه ، اصطبغت بشرته بلون التراب ، وأشبهت سحنته غابة مقشعرة الأديم ، متيبسة الشجر ، أما فمه نصف المفتوح فكان يرسل الأنّة الحبيسة والحشرجة المخنوقة يتداعى لها صدره الضعيف وتتصدع لها جنباته الواهية . وتكلم الزوج بعد صمت طويل :

— أرى أن ندعه يستوفي أنفاسه منفرداً ، فان نستطيع له نفعا . وخير لنا أن نتهيأ للمأتم المقبل والجناز المنتظر . فبدت على وجه المرأة أمارات القلق والاضطراب ، ثم فكرت لحظة وقالت :

— وما دام دفنه سيجرى هذا السبت فإن لدينا متسعاً من الوقت نتهيأ فيه لحفلة المأتم . قال الرجل بعد أن تدبر قولها

— إنك على حق ، ولكن أربع ساعات لا تكفي لنعيه إلى الجيرة ، ولا تتسع لدعوة الأصحاب والأقرباء إلى حضور المأتم من «تروفيل» إلى مانتو

فتبصرت المرأة كلام زوجها لحظة ثم قالت :

— لن يحوجنا أبي فيما أظن إلى أكثر من ثلاث ساعات ثم ينتهي كل شيء ، فتطوف أنت على منازل الحي ، وبيوت القرية قائلاً : لقد مات .

فظل القروي حائراً ، يقدر النتائج ، متردداً يزن المسألة ، ثم عالن امرأته

— مهما يكن من الأمر فليس بدّ من ذهابي .

وخرج من الغرفة ثم عاد يقول في تردد :

— ولأنك فارغة الشأن عاطلة من العمل ، فستقشرين البطاطس للطبخ ، وتعدين طبق التفاح لحفل المأتم ، وتضرمين النار في الفرن بأعواد الذرة اليابسة . ثم خرج من الدار فداعب كلبه الأصفر المدلل ، وتوجه إلى الطريق البعيد الذي يؤدي إلى تورفيل . ولبثت المرأة وحدها ، فانصرفت إلى ترتيب المنزل وتهيئة الطعام لحفلة المأتم : أفرغت الدقيق في المعجنة وأخذت تعجن الطحين وتفركه ، وتسحقه ثم تعركه . حتى تم لها منه كرة بيضاء شهية تركتها بجانب المنضدة . وانطلقت تقطف التفاح من البستان ، وكيلا تؤذي الشجر وتكسر الأغصان تسلقت إلى جوف الشجرة بمرقاة معدة لذلك ، وأنشأت تقطف وتكدس في حجرها كل تفاحة حلوة الجنى مكتملة النضج ، وفرغت المرأة من عملها ، فانصرفت إلى غرفة أبيها المحتضر وفي نفسها أنه قضى نحبه واستوفى أنفاسه ، على أنها ما كادت تتخطى عتبة الغرفة حتى تأدى إلى سمعها شخيره الصاخب وحشرجته الرتيبة ، فمضت إلى المطبخ تهيئ طعام المأتم وتعد وليمة الجناز دون أن تضيع وقتها سدى بجانب محتضر تعتقد أنه إن لم يمت الساعة فكأن قد ... أحاطت كل تفاحة بصفيحة من عجين « كما

هي العادة عند أهل الريف يوم حفلة المأتم » ثم صفت التفاح الواحدة بجانب أختها ، حتى انتظم لديها عقد من ثمانٍ وأربعين تفاحة . وبعد ذلك توجهت إلى طبخ الحساء ، فأضرمت ناراً عظيمة وعلقت عليها قدراً كبيرة أعدتها لإغلاء الماء وإنضاج البطاطس

وآب زوجها من مهمته الساعة الخامسة وما إن وضع قدمه على عتبة الدار حتى فاجأها :

— هل انتهى كل شيء ؟ !

— كلا ويا للأسف ! فما زالت حشرجته عالية الضجيج وقرقرته صاخبة الرنين . ثم راحا يستطلعان الخبر ، فإذا المدنف على الحال التي تركوه فيها منذ ساعات : نفس مضغوط مخنوق لا يتراخى ، وقرقرة متواصلة رتيبة لا تزيد ولا تنقص ، وحشرجة مبحوحة يتلو بعضها بعضاً كَتَكْتَكة الساعة المنتظمة ، فقال الصهر وهو ينظر إلى حميه بإشفاق :

إنه كشمعة الكنيسة سينطفئ دون أن يشعر أحد أو يحس موته إنسان ؛ ويدخلان إلى المطبخ فيتناولان الحساء ، ويأكلان قطعة من الخبز المغموس بالزبدة ، حتى إذا فرغت الصحون وامتلأت البطون ، عادا أدراجهما إلى غرفة المحتضر المشرف وقد أمسكت المرأة قنديلاً أخذت تمره على وجهه وفمه وعينيه كي يثبت لديها ، إذا لم يضطرب لسان السراج ، أن النفس مقطوع ، ولكن لسان السراج اضطرب واهتز ، وراح يتراقص ويرجحنّ كأنه في حفلة راقصة . هنالك غادر الزوجان المحتضر حانقين مغيظين ، وأسلما نفسيهما إلى النوم في سريرين في ناحية من الغرفة ، تحتوشهما الظلمة ، وتساورهما العتمة ، وما هي إلا أن ران الكرى على أجفانهما ، حتى دوى في جو الغرفة الموحشة غطيطهما المختلف الناشز ، أما غطيط الزوج فقوى عميق خشن ، وأما المرأة فرقيق حاد لطيف ، فتألف منهما ومن حشرجة العليل « أركسترا » مزعجة مقلقة ليست بالشجية ولا الطربة . ويستفيق الزوج والفجر وليد ، ونور الشمس لم يسطع على الآفاق ، فإذا المشرف في قيد الأحياء ، فيوقظ القروى امرأته قلقاً ساخطاً ، وتعتذر المرأة لحياة أبيها فتقول :

— إنه لن يمضي سحابة النهار في أكبر الظن ، فلنهدأ نفسك وليفرخ روعك . وعندي أن من الخير أن نشيع نبأ موته بين الجيرة وأهل الحي ، كي لا يتعنت علينا العمدة في دفنه ، في الغد ، وكي يتسع لدينا الوقت وتطول المدة . ويقتنع الزوج بهذه الحجة فيمضي إلى حقله ، يشيع النبأ وينعى الميت ، ومضى نصف النهار وأقبل الظهر وصاحبنا لم يمت . فبدأ المدعوون إلى المأتم يتوافدون زرافات ، ويدخلون أفواجاً ، كي يقوموا بواجب التعزية عن الراحل الهرم ، الذي أبطأت به قدمه إلى دار الآخرة

وفي الساعة السابعة حين دخل الزوجان غرفة العليل وفي نفسهما أنهما سيغمضان عينيه لآخر مرة ، شاهداه ويا للأسف يتنفس نفسه المعتاد ويحشرج حشرجته الرتيبة المزعجة ، فقال الرجل وقد تلهب غيظاً وارتجف فرقاً :

— وماذا تصنعين هذه الساعة يا « فيني » بعد أن أجبرتني على إذاعة نبأ موته بين الناس ؟

وسُمِّرت المرأة لا تنطق ولا تجيب . ثم انطلقا إلى العمدة فوعدهما أنه سيغمض عيني المحتضر ، ويأذن بدفنه منذ الغد . أما طبيب الصحة فقد أخذ على